

أعلام نقد القرن الثالث الهجري في ميزان عزالدين الأمين

أستاذ النقد المشارك
جامعة أم درمان الأهلية

د. هالة أبا يزيد بسطان

المستخلص:

شكل النقد العربي القديم حلقة مهمة من حلقات الجهد النقدي للناقد السوداني عزالدين الأمين، سواء في بواكيره الأولى أم في أطوار نضجه. وستقف هذه الدراسة على مواقفه وآرائه في بعض من أبرز النقاد العرب القدامى في القرن الثالث الهجري؛ هم: ابن سلام الجمحي - ابن المعتز - ابن قتيبة - وقدامة ابن جعفر، من لدن مؤلفه: الملامح الفنية في نقد العرب، من إصدارات دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة 2008م. وقد تم تناول كل شخصية منهم في محور منفصل، فتقسمت الدراسة بذلك إلى أربعة محاور، متخذة المنهج التحليلي الوصفي سبيلا لعرض ميزان عزالدين الأمين لهذه الأعلام النقدية، بما لها من مواقف نقدية لها أثرها البارز في مسيرة النقد العربي القديم وشكلت أهم لبناته التأليفية الأولى. وكان مما أُسْتُخْلِصَ في هذه الدراسة، ظهور الأسلوب النقدي لعزالدين الأمين الذي يقوم على التدقيق المنهجي في سرد طرحه النقدي، والحرص على الإبانة، ودقة التحليل، وإبراز موقفه في تفاصيل ما يقوم بعرضه من قضايا تبينتها تلك الشخصيات النقدية؛ بما يكون مُعِيناً لكل دارس ولكل باحث علم، في موثوقية لا يكاد يخلو منها سطرٌ فيما يورد من بيان. كما أنه لم تفتته المقاربة بين تلك المواقف والآراء النقدية لدى النقاد العرب القدامى وبين المذاهب النقدية والأدبية الحديثة. وتوصي الدراسة بمواصلة الوقوف على جهود عزالدين الأمين النقدية؛ ففيها من ثمار المنهجية والعلمية ما يشكل مدرسة نقدية تأسيسية، تحيد عن الفكر المتحجر وتنبذ التزمّت للرأي الواحد وللاتجاه الواحد قديم كان أم حديث، عربي كان أم غربي؛ لتحقيق غاية أن النقد الأدبي قالب يمكن أن تتشكل من خلاله كل آداب الأرض.

Abstract:

Extract...The Old Arab Critique was an important episode of the critical effort of the Sudanese critic Azaldin Al Amin, both early and in his maturity. This study will be based on his position and views in some of the most prominent Arab critics of the third century; They're: Ibn Salam Al-Jawhhi, Ibn Al-Mu'taz and Al Qadeem ibn Jafar, from Walden. Art Features in Criticism of Arabs, released by Sharjah Culture and Information Service 2008. Each of them was dealt with in a separate focus. The study was divided into four areas. The analytical and descriptive approach provides a way to present the balance of the faithful debt of these critical media, with their critical positions having a prominent impact on the old Arab monetary march and forming the main building blocks. One of the conclusions of this study was the emergence of a critical method of insulatory religion based on systematic scrutiny of the narrative of its critical proclamations and concern for proof. The accuracy of the analysis and the clarity of its position in the detail of the cases presented by those critical figures; To be specific to each scholar and scholar, the reliability is barely without a line in the statement. Nor has it missed the approach between these critical attitudes and the critical views of Arab ancient critics and modern critical and literary doctrines. The study recommends that the effort of the Secretary-General's cash debt be continued; In it, the fruit of methodology and science constitute a progressive school of criticism, which deviates from indulgent thought and dissociates itself from one view and one direction, old or modern, Arab or Western; To the end that literary criticism is a template through which all the etiquette of the Earth can be shaped.

Key Words: Critic-Literature-Balance-Approach

المقدمة:

أظهر الناقد العلامة عز الدين الأمين اهتماما كبيرا بالتراث النقدي العربي منذ بواكيره في الجاهلية وصدر الإسلام حين أصدر مؤلفه: طلائع النقد العربي في العام 1965م. وكانت تلك هي الحلقة الأولى من حلقات اهتمامه بنقد العرب. والحلقة الثانية هي مؤلفه الموسوم —: الملامح الفنية في نقد العرب، الذي أصدر في العام 2009م عن دار الثقافة والإعلام بالشارقة. وسيشكل هذا المؤلف مصدرا رئيسا لهذه الدراسة التي نطلب فيها الوقوف على النظرة التحليلية الناقدة للنقد العربي القديم لدى عز الدين الأمين من خلال وقوفه على أبرز أعلام النقد العربي في القرن الثالث الهجري فيما يوسم بنقد النقد. ولقد وقف عز الدين الأمين في بابيه الثالث على جهود أربعة من أبرز نقاد القرن الثالث الهجري، لكل علم منهم فصل في الباب. وسنعرض هنا موقفه من نقد هذه الفئة المختارة من النقاد في أربعة محاور نعرض فيها كل ناقد منهم في محور حسب الترتيب الذي وضعهم فيه الأمين: ابن سلام الجمحي- ابن المعتز- ابن قتيبة- قدامة بن جعفر. ومعلوم أن هذه الأسماء شكلت أبرز ركائز النقد العربي القديم. وسنسمي المحاور بأسماء الفصول كما بناها الأمين. وسنتبع المنهج التحليلي الوصفي في طرح هذا الدرس النقدي وصولا لتلخيص ما تم التوصل إليه من نتائج، مع بعض التوصيات الخاصة بجهود عز الدين الأمين النقدية سواء منها النظرية أم التطبيقية التحليلية.

ابن سلام الجمحي والأسس الأولى للنقد الفني:

بدأ عز الدين الأمين عرض هذا العلم بأسطر تعريفية موجزة إجازا غير مخل؛ فقط لتدخل القارئ في محور الشخصية. وهذا هو النهج الصائب الدقيق في التعرض للمعلومات التي يتسع انتشارها بالمصادر والمراجع؛ وهذا من قبيل التدقيق المنهجي الذي تميز به الناقد عز الدين الأمين في كل ما خطاه قلمه وفي ما حرص على تعليمه لتلامذته. وقد صنف الأمين الجمحي بأنه مؤسس النقد الفني وباني أسسه وواضع لبناته الأولى؛ نلمح ذلك في الجملة التي ألحقها بالاسم في عنوان الفصل: (... والأسس الأولى للنقد الفني) فبدأ في التصنيف النقدي من العنوان الذي نسجه لهذا الفصل. يؤكد ذلك أنه يراه قد بنى عمله في كتاب الطبقات على تقديره وحسه دون ذكر أسباب له⁽¹⁾ في معرض طرح منهج عبدالله بن سلام الجمحي في كتابه: طبقات فحول

الشعراء، يرى الأمين أن الجمحي قد بنى عمله على مبادئ فنية لم يفصح عنها⁽²⁾، هي أربعة مبادئ تُعدُّ الجوهر الفني المنهجي لما صنعه ابن سلام من تقسيم:

1. مبدأ تأثير العصر:

في تقسيمه الشعراء زمانياً إلى جاهليين وإسلاميين. قال: (ويُفهم من هذا التقسيم الزمني الذي سار عليه، أنه كانفي ذهنه تأثير العصر، وإن لم يُفصح عنه)⁽³⁾. وقال محمد مندور في كتابه النقد المنهجي عند النقاد العرب أن: (اتخاذ الزمن أساساً للتقسيم أمر لم يكن منه بد، بل إن في ألفاظ ابن سلام نفسه ما يدل على أنه لم يقصد إلى هذا التقسيم ولم يفكر فيه بل أملت طوائف الأشياء، وإنما كان منصرفاً إلى توزيع شعراء العهدين في طبقات تبعاً لجودة شعرهم وكثرتهم)⁽⁴⁾.

2. مبدأ تأثير البيئة الخاصة:

في تقسيمه الشعراء مكانياً: مكة_ المدينة_ الطائف_ البحرين: (وبلجؤه هذا التقسيم المكاني، لعله في ذهنه أيضاً تأثير البيئة الخاصة من حضر وبادية، وإن لم يفصح عنه كذلك).⁽⁵⁾ وفي تقديم شعراء المدينة لكثرة شعرهم، يرى الأمين: (أن المواهب لا يضمها مكان واحد؛ ولكن نقول قد تصحب المواهب مؤثرات ما، فتبرزها وتغذيها...)⁽⁶⁾ ومنها الحروب والغارات التي يكثر الشعر بسببها (كالحرب بين الأوس والخزرج في المدينة...)⁽⁶⁾ لذلك قل شعرقريش والطائف وعمان عن شعر المدينة التي شهدت حروب الأوس والخزرج. فخصوصية البيئة هنا من طبيعة مكوناتها الاجتماعية؛ تلك المكونات التي أوجدت الحرب في المدينة دون سواها آنذاك، ما حباها بغزارة الشعر حال كونه مصاحب وناقل لأحوال الحروب والغارات وما يتبعها من أحوال.

3. مبدأ تأثير خصائص الأجناس البشرية:

في جعله طبقة للشعراء اليهود، وقال في هذه: (فلعل هذا يستفاد منه مثل حديث المعاصرين الآن عن تأثير خصائص الأجناس في الأدب، حيث نرى من يهتمون بدراسة خصائص الجنس السامي وخصائص الجنس الآري، ويستنتجون تأثيرها المختلف في الأدب)⁽⁷⁾ من أولئك عباس محمود العقاد في مثل

قوله: (الآريون أقوام خيال نشأوا في أقطار طبيعتها هائلة، وحيواناتها مخوفة، ومناظرها فخمة رهيبة. فاتسع لهم مجال الوهم وكبر في أذهانهم جلال القوى الطبيعية. ومن عادة الذعر أنه يثير الخيالات في الذهن ويجسم له الوهم، فيصبح شديد التصور، قوي التشخيص لما هو مجرد عن الشخصوص والأشباح. والساميون أقوام نشأوا في بلاد صاحبة ضاحية، ليس فيما حولهم ما يخيفهم ويذعرهم، فقويت حواسهم وضعف خيالهم. ومن ثم كان الآريون أقدر على تشبيه ظواهر الأشياء، وذلك لأن مرجع الأول الإحساس الباطن، ومرجع هذا الحس الظاهر... وأيما شاعر كان واسع الخيال قوي التشخيص فهو أقرب إلى الإفرنج في بيانه وأشبه بالآريين في مزاجه...⁽⁸⁾ وهو فكر فلسفي لا يخطئه الصواب، وقد يُفسَّرُ من خلاله الكثير من أحوال الشعر ومعانيه وصوره في القديم والحديث. ولعمري هذا باب غاية في الاتساع ويعوزه عميق النظر ولطيف التحليل.

4. مبدأ خصوصية العاطفة في الشعر:

ذلك في صناعة طبقة لأصحاب المراثي، يقول الأمين: (وفطنته هذه إلى ذلك التخصيص، نعدّها فطنة إلى خصوصية العاطفة في الشعر، لأن الشعر في حقيقته تعبير أساسي عن العاطفة)⁽⁹⁾

مأخذه على منهجية ابن سلام الجمحي:

هذا.. ولقد وقف عز الدين الأمين منتقدا عدم إدراج الشاعر الغزلي عمر بن أبي ربيعة في أي من طبقات ابن سلام على الرغم من اعترافه بقوة شعره الغزلي خصوصا. قال: (كان ينبغي ألا يفوته ذكره مع شعراء الغزل في الإسلام، ومع ذلك لا نريد أن ننسى أنه أراد أن يجعل كل طبقة من أربعة رهط فقط، ولكن نقول ربما كان يجد له مخرجا في بقية الطبقات الإسلامية، كما فعل بالنسبة إلى أوس بن حجر حيث اضطر إلى أن يجعله في الطبقة الثانية من الجاهليين، رغم أنه أهل ليكون في الطبقة الأولى منهم) 10 وهذا من الخلل المنهجي في كتاب الطبقات على الرغم من تعليل ابن سلام في كثير من المآزق بربطه الطبقة بأربعة شعراء فقط، إلا أن العدد ما كان يجب أن يشكل عائقا لإدراج شعراء منحقهم الإدراج في سفر تأسيس كسفر طبقات فحول الشعراء. ومما أخذه الأمين على الجمحي أيضا، تغليب مبدأ الكثرة على مبدأ الإجابة. قال: (ولقد وجدناه يفضل الكثرة على الجودة: والكثرة عندها تأتي

بأحد سببين، هما تعدد الأغراض، أو طول النفس في قصائد الشاعر دون تعدد أغراضه... وفي الحق ليست الكثرة وحدها مقياسا سليما للمفاضلة بين الشعراء؛ بل الصحيح هو المقياساتأتي بأحد سببين، هما تعدد المتكامل الذي يجمع بين الكثرة والجودة.⁽¹¹⁾ كما أخذ عليه عدم عنايته بالتحليل وإظهار مواطن الحسن والرداءة؛ كقوله عن أبي نؤيب الهذلي أنه كان: (شاعرا فحلا لا غمزة فيه ولا وهن)⁽¹²⁾ وهذا مما أخذ على ابن سلام عند كثير من النقاد لاسيما المحدثين. (وكانت آراؤه الشخصية قليلة، ويغلب على كلامه الرواية من العلماء الذين أخذ عنهم)⁽¹³⁾ منهم يونس بن حبيب وخلف الأحمر وأبو عبيدة معمر بن المثنى والأصمعي وأبو عمرو بن العلاء وغيرهم.

ويختم حديثه عن ابن سلام بذكره أهم ما أفاده النقد الأدبي من ابن سلام في كتاب الطبقات، من ذلك: (فطنته إلى تأثير العصر في الشعر وتأثير البيئة، والفتنة إلى خصائص الأجناس والتعبير عن العاطفة. ثم وقوفه على مسألة نحل الشعر)⁽¹⁴⁾ وهذه الأخيرة يوضح عز الدين الأمين أن الجمحي وعلى خلاف غيره منالنقاد، لم يكتف بالتنبيه عليها فقط وإنما (درس النحل بتوسع ووفق منهج علمي... ويبدأ في هذا المنهج برفض الأخذ عن طريق الكتب، بل يعتمد إلى الرواية مع استنادها إلى العلماء العارفين)⁽¹⁵⁾ ولو كان ابن سلام وقف عند القول بالأخذ عن الرواة فقط لقلنا أن هذا من صميم النحل ولكنه أردف قائلًا بضرورة الإسناد عن العلماء العارفين، وهو المخرج من مأزق النحل ومعرفة المنحول من السليم في رواية الشعر. ومن محاسن ما وقف عليه عز الدين الأمين في نقد ابن سلام: (أن نقد الشعر وتحقيقه يحتاج إلى ذوق يعتمد على أمر يعتمد على أمرين، هما: المعرفة بخصائص الشعر، إذ أن لكل فن أسرارته التي لا يطلع عليها سوى الخبير البصير بذلك الفن، وثانيهما: الدربة).⁽¹⁶⁾ والاهتمام بهذه التفاصيل الفنية في نقد الشعر هي مما يتوافق ومزاج عز الدين الأمين النقدي المنهجي الرصين، ومما يحتفل به أينما وجده سواء في قديم النقد أم حديثه. كما حمد لابن سلام الجمحي وقوفه على الناحية الموسيقية في الشعر دون أن يسبق إليها، بجانب ما وجد من نقد لغوي في الكتاب، كما حمد له جمع التراث النقدي حتى عصره اعتمادا على الرواية. 16 قال الأمين: (إن ابن سلام بمنهجه الذي سار عليه، قد أفاد النقاد الذين أتوا من بعده، واستطاعوا أن يقدموا لنا نقدا منهجيا نسبيا، يقوم في أساسه على شيء من الموضوعية، مع عدم الإغراق في الذاتية، مع التفاوت بينهم

في الجانب الفني، مما لم يخرج بهذا النقد من مرحلة الملامح الفنية فيه، وسار على ذلك حتى انقضى القرن الثالث الهجري.⁽¹⁷⁾

ابن المعتز والنقد البلاغي:

بعد التعريف الموجز بابن المعتز أخذ في تثبيت حقيقة أن: (ابن المعتز هو أول من ألف في البديع وأثر بكتابه) بتأييد ما أثبتته ابن المعتز لنفسه من أسبقيته في تأليف كتاب يُعنى بفن البديع، مستندا في ذلك على قول ابن المعتز نفسه داخل الكتاب، منه: (البديع اسم موضوع لفنون الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ماهو وماجمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين)⁽¹⁸⁾ وهذا ما لم يقبله زكي مبارك في كتابه النثر الفني. ولم يوافق عز الدين الأمين زكي مبارك في فكرة رفض ريادة ابن المعتز في التأليف البلاغي في علم البديع خصوصا. ونرى أن عبارة ابن المعتز التي نصت على أن علماء اللغة والشعر القديم (لا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ماهو) هي من القول الزائد في معناه، أراد به تعظيم عمله وتبجيله بصورة لا تبدو مقبولة ويجافها المنطق والصواب.

قال زكي مبارك في رفضه فكرة ريادة ابن المعتز في هذا المجال: (إن العرب في جاهليتهم اهتموا بالنثر الفني اهتماما ظهر أثره وعرفت خواصه في خطب الخطباء ورسائل الكتّاب، ولكن ما عرف عن العرب من إهمال التقييد والتدوين لشيوخ الأمية فيهم أضاع علينا معرفة من اهتموا اهتماما جديا بتدوين البديع، فكان أن شاع بأن ابن المعتز هو أول الكاتبين في هذا الفن الجميل)⁽¹⁹⁾ وهذا ما لم يقبله عز الدين الأمين لبعده عن المنهج العلمي في إطلاق الحجج والبراهين. قال: (وهذا محض ظن واعتقاد ولا أراه يدحض دعوى ابن المعتز في سبقه لذلك؛ إذ أن هذا الاعتقاد يحتاج إلى ما يثبت إثباتا علميا حتى يقبل حجة في المجال العلمي).⁽²⁰⁾ وراح يدافع عن ريادة ابن المعتز في التأليف البديعي بما يدعمها مما ذكره ابن المعتز في كتابه البديع مؤكدا أن (ابن المعتز ليس هو واضع البديع، ولكنه أول من ألف فيه)⁽²¹⁾ وأورد ما يؤيده من دعم بعض النقاد المحدثين لريادة ابن المعتز في تأليف كتاب البديع، منهم محمد مندور الذي قال: (كان عمله هذا حدثا عظيم الأهمية في تاريخ النقد العربي وذلك لأمرين: تحديده خصائص مذهب البديع، وتأثيره في

النقاد اللاحقين له ... ولو لم يكن له فضل غير تحديد الاصطلاحات، لكفاه ذلك ليتمتع في تاريخ النقد العربي بمكانة هامة⁽²²⁾

وأورد عز الدين الأمين سبق الجاحظ لذكر شيء من البديع في معرض حديثه عن البيان من تشبيه واستعارة وغيرها، مع ملاحظة إهمال ابن المعتز للتشبيه: (إذ لم يخصه بالدراسة، ولم يجعله من أبواب البديع التي قسّم إليها الكتاب، ولعل ذلك كان اعتماداً على أن التشبيه هو أصل الاستعارة التي عُني بها في الكتاب عناية تامة.)⁽²³⁾ ثم يعود مؤكداً أسبقية ابن المعتز في التأليف البديعي بقوله: (ذلك إلى أن هناك جماعة من البلغاء غير الجاحظ قد سبقوا ابن المعتز بشيء من الحديث في البديع، ولكن ابن المعتز مع ذلك يظل هو أول من جعل البديع مستقل بكتاب منذ القرن الثالث الهجري. وأما عبد القاهر الجرجاني فهو الذي أرسى قواعده فيما بعد في القرن الخامس...) ⁽²³⁾ مؤكداً تأثر عبد القاهر الجرجاني بكتاب البديع بالإضافة إلى كون الكتاب كان مصدراً لقدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر، وللأمدي في كتاب الموازنة، ولأبي هلال العسكري في كتاب الصناعتين، وللقاضي الجرجاني في كتاب الوساطة، ولابن رشيق في كتاب العمدة، وذلك مما يجده -والحال كذلك- يُظهر أثر كتاب البديع في علوم البلاغة وفي النقد الأدبي الذي انبنى عليها.

بعد الخوض في جدل أسبقية ابن المعتز في التأليف البديعي، انتقل عز الدين الأمين للحديث عن منهج كتاب البديع وأوضح أن (ابن المعتز قد سلك في كتابه منهجاً علمياً دقيقاً لا يكاد يخالفه إلى أن فرغ من تأليف الكتاب... أما طريقة معالجته لكل باب فقد كانت متشابهة، إذ كان يورد شواهد لكل باب من القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، ومن كلام الصحابة وغيرهم من عظماء الكتاب والبلغاء، كما كان يستشهد بأشعار الجاهليين والإسلاميين والمحدثين) ⁽²⁴⁾ لذلك استعرض عز الدين الأمين طريقته لباب واحد، مثلاً لبقية أبواب الكتاب، وقد اختار باب الاستعارة لأنها عنده أقيم هذه الأبواب جميعاً. ومن ملاحظاته على منهج ابن المعتز في باب الاستعارة أنه نادراً ما يعلّق تعليقا تحليلياً. قال: (فهو مثلاً لم يعلّق بقليل أو كثير على الشواهد الأخرى التي أوردها في هذا الباب من القرآن والأحاديث وكلام الصحابة... غير أننا نقول أنه كان يعلّق أحياناً على الشواهد تعليقا لغوياً لا تعليقا بلاغياً... وقد لاحظنا كذلك أن ابن المعتز يعمد أحياناً إلى شرح الشواهد، ولا يقتصر على التحليل اللغوي) ⁽²⁵⁾ وأورد له تعليقه على بيت زهير:

إِذَا لَقِحتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضِرَّةٌ صَرُوسٌ تَهْرُ النَّاسُ أُنْيَابُهَا عُصْلٌ

قال فيه: (تهر بضم التاء: أي تحملهم على أن يكرهوا، يقال: هر فلان كذا، إذا كرهه، وأهررت أنا حملته عليه، وهرير الكلب صوتٌ يردده إلى جوفه إذا كره الشيء أو الشتاء لشدة البرد أو لغيره...) ⁽²⁵⁾ وختم وقوفه على بديع ابن المعتز وهو يراه في منهجه سهل ليس فيه التواء أو تعقيد، جمع بين البلاغة والنقد وحَقَلَ بالنصوص الشعرية والنثرية. قال: (والحق أن كتاب البديع ألف في الوقت الذي لم تنفصل فيه البلاغة عن النقد، إلا أن ناحيته البلاغية كانت أعظم وأوضح. وأما ما جاء فيه من نقد فهو من نوع ذلك النقد الساذج البدائي المنبني على الذوق غالباً، مع شيء من التعليل الموضوعي الذي لم يصل فيه إلى درجة الاستقصاء، ولم يصل فيه إلى الحكم المنبني على قواعد وأصول، وهو أكثر ما يُعنى فيه بالجانب اللغوي، ولا يتعلّق بالقيم الشعرية على أية حال.) ⁽²⁶⁾ ذلك مع تثبيته أنه قد أثر في التأليف النقدي والبلاغي من بعده.

ابن قتيبة والنقد بروح العلم

أول ما أثبتته عزالدين الأمين لابن قتيبة هو اتزانه المعرفي وميله للعربي من المعارف دون الأجنبية. قال: (كان ابن قتيبة للاتزان في العلم والأدب وللملائمة بين المعارف المختلفة، دون ترك المعارف العربية للمعارف الأجنبية، ودون طغيان الأجنبية. ولذلك كان هو ممن تأثروا تأثراً يسيراً بالمعارف الأجنبية، عليها وكان يشكو من انحراف المتبحرين عن النظر في علم الكتاب، وفي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، وفي كلام العرب ولغاتها وآدابها) ⁽²⁷⁾ وهذا من تعصب ابن قتيبة للثقافة العربية والإسلامية دون سواها. ولعل مثل هذا الفكر المتعصب هو مما أقعد بالثقافة العربية وساهم في انغلاقها وقوقعتها داخل ذاتها لقرون طويلة، فأتنا فيها الكثير من الجديد في الثقافات العالمية الإنسانية التي لا يستغنى بعضها عن بعض، والتي لحقنا بها مؤخراً من باب التقليد بدلداً عن ولوجنا لها من باب التطوير. ولقد شبه عزالدين الأمين ابن قتيبة بالجاحظ في ذلك الانحياز للثقافة العربية. قال: (وابن قتيبة يشبه الجاحظ فيما ذكرناه من الاتزان، وكان أولهما خطيب أهل السنة، كما كان ثانيهما خطيب المعتزلة) ⁽²⁷⁾ ووصف عزالدين الأمين لهذا الموقف بالاتزان يثبت بطرف من الأطراف مناصرته إياه وميله إلى التأصيل العروبي؛ ذلك الميل الذي جعله يربط حادثة الشعر بجذورها العربية الأولى في عدد من مؤلفاته النقدية.

وفي عرضه لمواقف ابن قتيبة النقدية، أورد مقارنة نقدية أراد بها إزالة اللبس الحادث في موقف ابن قتيبة من مسألة القدم والحداثة، في قوله: (ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين، وأعطيت كلا حظهما ووفرت عليه حقه)⁽²⁸⁾ وقوله: (وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين ... فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي...)⁽²⁸⁾؛ حيث يفهم للوهلة الأولى وقوع تناقض في موقف ابن قتيبة حول هذه المسألة. يقول الأمين: (يفهم من هذا القول- في رأينا- أنه يريد التزام هذه الصورة الفنية في شكلها ومضمونها القديم، فلا يحكم بتفضيل متقدم أو متأخر على ضوء التقدم أو التأخر كما يفعل بعض النقاد؛ ولكن يريد الحكم على مدى الإجابة في تتبع تلك الصورة القديمة بعينها حين ينهج الشاعر نهج القصيدة القديمة، وعليه فلا تناقض بين قوله فيما ذكرناه.⁽²⁹⁾

ثم خصص الحديث بعد ذلك على كتاب الشعر والشعراء وابتدأ، وبعد توضيح رأيه حول الأهمية النقدية والأدبية للكتاب⁽²⁹⁾، قام بالتعليق على منهجه السردى مقارنة بمنهج طبقات ابن سلام. قال: (وإذا كان ابن سلام قد سبق ابن قتيبة بمنهجه في ترتيب طبقاته، وتبيين شعرائها، وأقام ذلك على أسس واضحة، فإن مثل هذا المنهج تفقده عند ابن قتيبة، فهو لم يضع أسسا لترتيبه، لا من حيث الجودة، ولا من حيث التاريخ، أو غيرهما. وعليه فكان أحيانا يذكر الجاهلي قبل الإسلامي وهكذا، مما يدل على عدم الترتيب في منهجه). ولكننا نقول أن ابن قتيبة لم يرم في مؤلفه إلى ترتيب الشعراء وتصنيفهم بأي منهج كان، وإنما عمد للاهتمام بالفن الشعري وقضايا وأسسه الفنية وليس بالشاعر ومرتبته بين رصفائه في هذا العصر أو ذاك؛ لذلك كان أساس الطرح النقدي في الكتاب هو الحديث عن العناصر الفنية لبناء القصيدة العربية؛ من لفظ ومعنى وطبع وتكلف وما يلحق ذلك من قضايا كالسرقات وغيرها. لذلك لا نجد المقارنة بين منهج ابن سلام ومنهج ابن قتيبة منصفة لكليهما؛ إذ لكل من المؤلفين سماته السردية ومنهجه النقدي وأهدافه الفنية. وفي معرض تصوير عز الدين الأمين لقضايا الكتاب والتقسيمات الفنية التي صنعها ابن قتيبة، نقف عند رأيه الفني التذوقي للأمثلة التي أوردها ابن قتيبة في باب ما تأخر معناه وتأخر لفظه من الشعر؛ حيث قام بتفسير أحد

الأييات تفسيراجماليا نراه يدخلها في باب ما حسن لفظه وجاد معناه. وذلك في التعليق على بيت الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شَاوِ مِشَلْ شَلُولْ شُلْشُلْ شُولْ

قال عنها ابن قتيبة: (وهذه الألفاظ في معنى واحد، وقد كان يُستغنى بأحدها عن جميعها) قال الأمين: (وهذا صحيح كما يقول ابن قتيبة، ولكن هذه الألفاظ مع غرابتها، فهي لا تخلو من صورة صوتية لطيفة إذا ما تدبرناها بأذاننا الموسيقية، إذ هيعدنا تحكي صوت الشواء بهذه الشينات، ويحكي تتابعها صوته على النار، وكأنك تسمعه من خلال هذه الكلمات.) ونراه هنا قد أعمل النظريات النقدية الحديثة التي تقف على سمات الحروف وتجاوزها، وتقف على ما يصنعه ذلك في بناء المعنى وكمال النص. وأضاف الأمين: (ويذكرنا بيت الأعشى هذا بما يبعثه من صورة صوتية من ألفاظه، يذكرنا ببيت المتنبي:

وَأَمْوَاهُ تَصِلُ بِهَا حَصَاهَا صَلِيلَ الْحَلِي فِي أَيَّيِ الْغَوَانِي

فهذه الصادات وما تحدثه من صورة منبعثة من ألفاظها عند تتابعها، إنما تحكي صوت الحصى عندما تحركه المياه؛ وهي صورة صوتية تحكي في مقابلها صوت الجليّة عندما تحركها الحسان بأيديهن. ولكن مع هذا التشابه بين الصورة الصوتية عند الأعشى، والصورة الصوتية عند المتنبي، فإن صورة المتنبي أوقع في النفس، وأحلى في موسيقاها، وأدعى إلى تراددها.⁽³⁰⁾ وحول حديث ابن قتيبة عن ركني اللفظ والمعنى وأثرهما في صناعة الشعر، يوضح عزالدين الأمين أن ابن قتيبة لم يكن أول من طرق هذا التناول النقدي: (وسنجد أنه سبق إلى جعلهما ركني الأدب، وإلى أنه تعتورهما الجودة تارة والرداءة تارة أخرى. فقد سبقه إلى ذلك بشر ابن المعتمر المتوفى سنة 210هـ، ثم الجاحظ المتوفى سنة 255هـ. وفضل ابن قتيبة أنه عالج اللفظ والمعنى مقترنين في النص الأدبي الواحد، في حين عالجهما منفردين كلٌّ من بشر والجاحظ؛ ولذا فمعالجة ابن قتيبة أوفى وأتم في عرض صورة النص.) وموقف آخر لعزالدين الأمين من آراء ابن قتيبة النقدية، في مخالفته إياه جعل تنقيح الشعر من التكلف؛ في مثل قوله في الشعر والشعراء: (ومن الشعراء المتكلف والمطبوع، فالتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة. وكان الأصمعي يقول: زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر، لأنهم نقّحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين. وكان الحطيئة يقول:

خير الشعر الحولي المنقح المحكّ؛ وكان زهير يسمي كُبرَ قصائده بالحوليات) فيعقب الأمين بقوله: (وإننا نرى إزاء ذلك أن التنقيح لا يعني في كل حالاته تكلفاً أو ضعفاً في الموهبة الشعرية؛ وعليه نقولان التأنّي والتنقيح عند زهير والحطيئة لا يقدر في موهبة أي منهما، أو مستواه الفني، فشعرهما يقوم خير دليل على الإجادة عندهما، وأن كليهما من المطبوعين). فخالف بذلك ابن قتيبة في أصل مفهوم الطبع والصنعة. ولا نجد أن قول ابن قتيبة يقلل من موهبة أي من الشاعرين، ولكن بطبيعة الحال فإن الشعراء المجيدين ممن لا ينتهجون نهج التنقيح وتطويل إعمال الذهن في نصوصهم؛ وهم من يدخلون في تصنيف الطبع عند ابن قتيبة، هم بطبيعة الحال أصحاب مزية فنية تتقدم بهم عن زهير وصحبه في المنهج التنقيحي. ويختتم عز الدين الأمين عرضة لكتاب الشعر والشعراء بقوله: (وخلاصة منهجه، أنه بحث في الأدب بروح العلم، وجعل النقد كالعلم من حيث الدقة والتحديد). وهو كذلك.

قدامة بن جعفر والنقد الفلسفي:

كما فعل في العلماء الثلاثة سألني الذكر، ابتدر الحديث ببعض من سيرة قدامة في إيجاز تتطلبه وتتناسب معه طبيعة الطرح. قال عنه: (وهو يمثل لنا أولئك العلماء الذين تأثروا كل التأثر بالثقافة اليونانية، حيث درس الفلسفة، وعني أكثر بالمنطق، وكان تأثره بأرسطو خاصة، وذلك بعد أن اطلع على كتابيه «الخطابة» و «فن الشعر»... وتأثير هذين الكتابين أخضع قدامة الشعر العربي للعقل الفلسفي اليوناني، واشتق له قواعد وأصولاً، حين ألف كتابه «نقد الشعر».⁽³¹⁾ وأشار عز الدين الأمين إلى أن قدامة أعطى نفسه سبق التأليف في علم جيد الشعر من رديئه، كما فعل ابن المعتز في تأليفه في علم البديع. قال (وتناول قدامة في كتابهمسائل جعلها أساساً له، وأهمها: حد الشعر، وصلاحيّة كل المعاني له، ومناقضة الشاعر نفسه في معانيه، والغلو فيها...)⁽³²⁾ ويقول: (إن استعماله لمصطلح «حد» هو تأثر بما هو في اصطلاح المناطقة الذين يقولون إن الحد هو «القول الدال على ماهية الشيء». ويكون قدامة باستعماله لهذا المصطلح قد أبرز أول تأثر له بالمنطق). وتعريف قدامة للشعر مشهور حيث يقول: «إنه قول موزون مقفى، يدل على معنى». وفي رأي عز الدين الأمين أن: (تعريف قدامة للشعر، ليس تعريفاً جامعاً مانعاً، لأنه لم يتضمن الحديث عن أمرين مهمين، هما العاطفة والخيال، إذ الأول أساس الشعر، والثاني أساس صورته، مع الاختلاف في ذلك بين المذاهب الأدبية، وبين أذواق الأفراد وثقافتهم

في الأزمان المختلفة⁽³³⁾ وفي مسألة صلاحية كل المعاني للشعر يرى قدامة: (أن المعاني كلها معرّضة للشاعر، وله أن يتكلم منها في ما أحب وأثر من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه).⁽³⁴⁾ ويرى عزالدين الأمين سلامة هذا المبدأ، (ولكن قدامة يهتم في تناول المعاني بتجويد الشاعر لما يقول من الناحية الفنية فحسب، فللشاعر عنده أن يعالج الرذيلة كما أحب، وقد يعالج الفضيلة أيضا كما هي في الواقع كما أحب) ولكن هذا المنزع لا يتوافق وعزالدين الأمين الذي يرى ضرورة تناول الرذيلة تناولا يعالج أمرها في المجتمعات، يقول: (ولذا نختلف مع قدامة الذي نجده يلتقي في اتجاهه مع أصحاب مذهب الفن للفن الذين جاؤوا بعده، ونادوا بمثل ما دعا إليه؛ فهم الذين يرون أن الفن يجب ألا يقصد منه أن يكون طريقا للنافع، ولا للخير، ولا للأمور القدسية، وإلا يقود إلى ذات نفسه. ومثل هذا الاتجاه في الأدب، كما عند قدامة أو غيره، هو ما يبرر عند الأدباء إنشاء الأدب المكشوف، فلا يرى صاحبه مأخذا عليه؛ ولكنه اتجاه كما نرى لا يوافق المجتمع الفاضل، ويجب الوقوف في طريقه لئلا يُفسد مثل هذه المجتمعات).⁽³⁵⁾ وهذا الذي دعا إليه عزالدين الأمين هو من ملامح أدب الالتزام. ويرى عزالدين الأمين أن من المؤشرات البارزة التي تشير لتأثر قدامة بأرسطو، مسألة مناقضة الشاعر نفسه⁽³⁶⁾، فإن (الغاية الفنية هي المهمة عند أرسطو وعند قدامة؛ وعندهما لا بد من الفصل بين الفكرة المنطقية والفكرة الأدبية. ويضيف أرسطو في كتاب «الخطابة» أنه يرى كما يرى السوفسطائيون أن الكلام في الشيء وفي ضده، دليل على تفوق الخطيب)⁽³⁷⁾. ومسألة أخرى تشير لتأثر قدامة بمنهج أرسطو في الأدب والنقد هي: جعله الصفات النفسية هي أمهات الفضائل: (وقد حصرها قدامة في العقل والشجاعة والعدل والعفة، وجعل أضافها صفات للذم. ومع أن أرسطو تكلم أيضا في الفضائل الجسمية من صحة وجمال وغيرهما، فإن قدامة لم يُعَنَّ بها، بل كان يشير إليها إشارات عابرة، وكان يقول من مَدَحَ بها أو دَمَّ كان مخطئا).⁽³⁸⁾ ثم ثالثها مسألة الغلو في المعاني، التي تناولها قدامة وقال بها بعض نقاد العرب وشعرائهم ومنهم الأصمعي والنابغة والبحري الذي قد ذكر له قوله:

كَلَّفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ والشعرُ يُغْنِي عَنِ صَدَقِهِ كَذِبُهُ
والشعر لَمْ حُكْ تكفي إشارته وليس بالهذر طَوَّلْتُ خُطْبُهُ

وقد قال قدامة في هذه المسألة: (إن الغلو عندي أجود المذهبين، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال: أحسن الشعر أكذبه، وهكذا نرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم)⁽³⁹⁾ وقد نوه عز الدين الأمين إلى أن قدامة يقصد الإشارة إلى أرسطو خصوصا؛ ذلك أنه كان حريصا على الغاية الفنية قبل حرصه على صدق المعنى. ومحصلة ما يجده الأمين في صورة النقد عند قدامة، أنها حادة الملامح لا تناسب الشعر وفنونه؛ قال: (إن التحكم في النقد بهذه الحدود الصارمة التي سار عليها قدامة تنافي طبيعته الفنية، وتنافي ما يمكن أن يجد فيه من أصول ومقاييس، وتقف سدا منيعا أمام تطوره؛ وحال النقد في عصرنا الحديث، ومنذ أن بدأ تطوره المنهجي في القرن الرابع الهجري، يثبت عدم صحة هذا التحكم في الأصول النقدية عند قدامة، ولكنه يعترف بجهوده التي أرسيت بعض قواعده، ودرست بعض المسائل البلاغية استمرارا لما سبقه به ابن المعتز؛ ولقدامة الفضل كذلك في دفع النقد للأخذ من المعارف الأجنبية، وإن كان قد بالغ في ذلك، وتجاوز كثيرا ما نادى به ابن قتيبة قبله، حين دعا للاعتدالي في الأخذ خلال التأثر بالأجنبي).⁽⁴⁰⁾

الخاتمة:

مما أُستُخْلِصَ في هذه الدراسة، ظهور سمات الأسلوب النقدي لعز الدين الأمين الذي يقوم على التدقيق المنهجي في سرد طرحه النقدي، والحرص على الإبانة، ودقة التحليل، وإبراز موقفه في تفاصيل ما يقوم بعرضه من قضايا تبنتها تلك الشخصيات النقدية؛ بما يكون مُعينا لكل دارس ولكل باحث علم، في موثوقية لا يكاد يخلو منها سطرٌ فيما يورد من بيان. كما أنه لم تفتقه المقاربة بين تلك المواقف والآراء النقدية لدى النقاد العرب القدامى وبين المذاهب النقدية والأدبية الحديثة.

التوصيات :

وتوصي الدراسة بمواصلة الوقوف على جهود عز الدين الأمين النقدية؛ ففيها من ثمار المنهجية والعلمية ما يشكل مدرسة نقدية تأصيلية، تحيد عن الفكر المتحجر وتنبذ التزمّت للرأي الواحد وللتجاه الواحد قديم كان أم حديث، عربي كان أم غربي؛ لتحقيق غاية أن النقد الأدبي قالب يمكن أن تتشكل من خلاله كل آداب الأرض.

المصادر والمراجع:

- (1) الملامح الفنية في نقد العرب_ عز الدين الأمين دائرة الثقافة والإعلام_ الشارقة_ ط1_ 2008م_ ص86
- (2) نفسه ص87
- (3) نفسه
- (4) النقد المنهجي عند العرب_ محمد مندور_ دار نهضة مصر_ أبريل 1996م_ بدون طبعة_ ص12
- (5) الملامح الفنية في نقد العرب ص87
- (6) نفسه
- (7) نفسه ص88
- (8) ديوان شكري_ جمعه وحققه نقولا يوسف.. شارك في جمعه محمد رجب البيومي_ مراجعة فاروق شوشة_ المجلس الأعلى للثقافة_ مصر_ 2000م_ مقدمة لآلي الأفكار_ ص136-137
- (9) الملامح الفنية في نقد العرب ص88
- (10) نفسه ص90
- (11) نفسه ص91
- (12) طبقات فحول الشعراء-ابن سلام الجمحي- شرح محمود محمد شاكر_ دار المدني بجدة_ 1952م_ ص131
- (13) الملامح الفنية في نقد العرب ص91
- (14) نفسه ص93
- (15) نفسه ص92_ راجع الطبقات ص4-5 لنص ابن سلام
- (16) الملامح الفنية في نقد العرب ص94
- (17) نفسه ص95
- (18) كتاب البديع_ عبدالله بن المعتز_ اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس إغناطيوس كراتشتوفسكي_ ط3_ 1982م_ ص58
- (19) النثر الفني_ زكي مبارك_ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة_ مصر_ 2012م_ ص54
- (20) الملامح الفنية في نقد العرب ص99
- (21) نفسه ص102
- (22) النقد المنهجي عند العرب_ محمد مندور_ دار نهضة مصر_ 1996م_ ص60-61
- (23) الملامح الفنية في نقد العرب ص103

- (24) نفسه ص103
- (25) نفسه ص106-107
- (26) نفسه ص110
- (27) نفسه ص111-112
- (28) نفسه ص113-114
- (29) نفسه ص114-115
- (30) نفسه ص112-121
- (31) نفسه ص126
- (32) نفسه ص127
- (33) نقد الشعر في السودان حتى بداية الحرب العالمية الثانية- عز الدين الأمين- دار جامعة الخرطوم للنشر- ط1- 1999- ص66
- (34) نقد الشعر- قدامة بن جعفر- تحقيق كمال مصطفى- مكتبة الخانجي- مصر- ط1- ص9
- (53) الملامح الفنية في نقد العرب ص130-131
- (36) راجع نقد الشعر ص13-14
- (37) راجع بلاغة أرسطو بين العرب واليونان- إبراهيم سلامة- مكتبة الأنجلو المصرية- ط1_ 1952م- ص152
- (38) الملامح الفنية في نقد العرب ص134
- (93) نقد الشعر ص55-56
- (40) الملامح الفنية في نقد العرب ص136